الصوفية تحرر وانطلاق

للأستاذ محمود محمد عمارة

الأستاذ بمعهد دسوق الدينى

هذا الانسان .. كيف كان .. وكيف أصبح ؟ قبضة من تراب سرى فيها الروح الالهى فكانت هذا المخلوق العجيب .. بأفكاره .. ومشاعره وأشواقه ! ..

فطبيعته اذن مزيج من كدرة الارض .. ونور السماء .. ومن هنا كان عنده الاستعداد لأن يصبح أخطر المخلوقات قدرا .. ولأن يكون أعلاها مقاما ! ..

وكما تلتقى ظلمة الليل المدبر ببياض النهار المقبل .. التقت فيه المتناقضات :

انه نور ونار .. حنان وقسوة .. رحمة وانتقام .

دواؤك فيك وما تشعر
ودأؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر

فحيث كان الانسان سيد الحياة .. فقد تمثلت فيه كل خصائص هذه الحياة :

فيه شراهة الدب .. وعفة الملائكة .
فيه ضراوة الوحش .. ووداعة الحمل .
فيه روغان الثعلب .. وبراءة الطائر .
فيه رقة النسيم .. وزئير العاصفة !

« ان فى الانسان طاقات اقتدار
آه لو يعرفها كيف تدار !
آه لو آمن انسان بذاته ..
لأتى فى الأرض كبرى معجزاته
وربما كان الها فى صفاته
حل منه الروح فى كل جهاته
ليس للانسان الا ما سلك
فهو اذا شاء الله أو ملك
واذا شاء تردى فهلك
انه أعطى حق الاختيار !!

ولكن .. بأى شيء ينحط الانسان الى هوة سحيقة .. وبأى قوة يرتفع ليكون أسمى المخلوقات جميعا ؟ ..

ان الشيطان المريد يستثير القوة الغضبية والشهوية ويدفعها الى الولوغ فى حمأة الخطايا .. حتى اذا استمرأ الانسان تلك الخطايا ومرد عليها .. خفت صوت الضمير .. أو القوة الروحية المودعة فيه .. وضاع رنين أجراسها فى زحمة الشهوات !

وتجد الانسان والحالة هذه لا يبصر الا بعينى رأسه محسوسات هذا الكون .. فيأكل ويشرب . وتلهيه نعماء الحياة عن حقائق الاشياء واسرارها . .

وهنا لابد من ارادة ماضية تقطع على تلك الرغبات المسعورة طريقها .. وتقلم أظفارها . حتى تستطيع الروح أن ترى .. وأن تنطلق من بين جدران هذا الجسد المترهل .

والانسان فى الحقيقة بروحه الهادية وارادته الماضية .

وهذا هو دور الصوفية الخطير .. فهى بمبادئها وتوجيهاتها تصقل النفوس .. وتصفى الوجدان .. وتحد من سعار الجسد .. حتى اذا ما دق ورق ، استطاعت الروح الحبيسة أن تنطلق الى العالم الأسنى لتحلق فى سرحها الخصيب عبر السماوات .. فتستعيد صفاءها ونقاءها .. رقة كالماء يجرى .. خفة كالضوء يسرى !

كذلك أرواح المحبين دائما
تحركها الاشواق للعالم الأسنى

فالصوفية اذن ارادة قوية تتحكم فى شهوات النفس .. وانطلاق بالروح الى الملكوت الاعلى .. لترى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وان الذاكرة لتتخطى القرون الطوال .. ثم تجتاز حدود التاريخ لتقف لحظات مع آدم عليه السلام وهو يتلقى من الله درسا فى مبادىء الصوفية !

« **يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة** » فالله سبحانه وتعالى يعلم أنه سيكون خليفته فى أرضه .. « **وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب ونخيل ..** » ومن شأن هذه النعم أن تلوى زمام الانسان اليها فينسى المهمة التى خلق من أجلها ..

فلا بد له من سلاح يرتكز عليه .. ذلك السلاح هو الارادة القوية ..

فكأن الله سبحانه وتعالى كتب له العيش أياما معدودات فى رحاب الجنة .. ثم حرم عليه الأكل من شجرة بعينها .. حتى اذا ما نازعته نفسه للأكل منها .. تيقظت الارادة .. وتتكرر المحاولة .. ويتكرر

الدفع .. فتشتد الارادة وتقوى .. فاذا هبط الى الارض .. هبط ومعه سلاحه الذى يعيش به سيد نفسه .. وفوق مستوى شهواته .

وتلك هى رسالة الصوفية .. كما كانت وكما ستكون أبدا ..

ان الصوفية ليست دعوة الى الجبن أو الضعف والفرار من الحياة بأعبائها وتكاليفها ..

بيد أنها تتكشف للناقد البصير قوة وتحررا وانطلاقا ..

ألم تر كيف تدعو الناس الى الزهد والصبر والحلم ؟ ..

وما هذه الفضائل كلها الا مظاهر للقوة فى أسمى معانيها ..

الزهد قوة ..

لأنه انتصار على دفعة الهوى .. وفورة الغريزة ..

والصبر قوة ..

لأن الرجل الضعيف يجزع دائما .. ولا يتحمل تكاليف الصبر وأعباءه ..

والحلم أو الصفح قوة ..

فالذى يصفح عن غيره واثق من قوته .. يترفع عن النزول الى مستوى الانتقام ..

وخلاصة ما يقال فى وصف الانسان الصوفى انه :

صامت .. ولكن فى تفكير ..

منعزل .. ولكن فى تدبير ..

ساكن كالبنيان وفى صدره ما يشبه البركان !

تماما كالبدر فى علاه .

انه يمضى فى مداره ساكنا هادئا ..

وهو نفسه الذى يهيج سكينة البحار مدا وجزرا !

محمود محمد عمارة